معركة صوشيما

قد يعجب المرء من اهتمام دول اوربا ببناء البوارج الكبيرة حتى كأن ليس لها همٌّ سواها والبارجة منها يستلزم بناؤها مليونين او اكثر من الجنيهات وتقتضي من النفقة اكثر من مئة الف جنيه في السنة حتى ان دولتنا العلية اخذت تنفق خطوات تلك الدول فاوصت على بارجتين كبيرتين في معمل انكليزي ولو اضطرّت ان تستدين ثمنهما . ولكن معركة صوشيما التي تغلبت فيها البوارج اليابانية على البوارج الروسية فكانت الفاصلة في حرب الروس واليابان لم تبقِ محلاً للريب ان الدول الكبيرة ستعتمد في المستقبل على الحروب البحرية لفصل ما بينها من الخصومات ان لم تعتمد على التحكيم . فان الحرب البرية مهما قصرت مدتها دامت بضعة اشهر واما الحرب البحرية فتنقضي في بضع ساعات

يتذكّر قراء المقتطف انه لما تغلّب اليابانيون على اسطول الروس في بورت آرثر ارسل الروس اسطولهم الثاني من اوربا الى بحار اليابان لينضم الى اسطولهم الذي في فلادڤستوك حتى يقوى الاسطولان على مناهضة الاسطول الياباني فكانت النتيجة ان الاسطول الياباني لاقى الاسطول الروسي في طريقه واوقع به اغرق بعض بوارجه وغنم البعض الآخر في بضع ساعات كما سيجيء

وكان في الاسطول الروسي قبطان اسمه فلادمير ستوف عملهُ ان يصف ما يرى ويكتب ما يسمع وكان في بارجة الاميرال رديجيتزنسكي اميرال الاسطول كله وبقي معهُ فيها الى ان اشرفت على الغرق وجُرح الاميرال جراحاً كثيرة وجرح هو معهُ فنقلا الى سفينة اخرى . وقد وصف هذه المعركة وصفاً مسهباً ثم توفي من اثر جراحه بعد ما ادمج وصفهُ لها في كتاب طبع حديثاً ونشرت مجلة لندن خلاصةً منهُ رأينا ان نقتطف منها ما يلي

مرَّ اليوم السادس والعشرون من شهر مايو (١٩٠٥) ولم نشعر به . لا اعلم كيف كان شعور غيرنا في البوارج الاخرى اما نحن في السوفروف (بارجة الاميرال) فكنا ناعمي البال متشوقين الى القتال لا نوجس شرًّا ولا نخشى ضرًّا . وكان الرجال يتذاكرون في هل نلتقي بالاسطول الياباني في المضيق وهل نستطيع ان نخطّاهُ ونصل الى فلادڤستوك المكان الذي نقصده من غير ان يدري بنا لشدة تكاثف الضباب وما يمكن ان يلحق بنا من الاذى اذا اصطدمنا بالطرابيد العوّامة وقوارب الطربيد

ولما غابت الشمس ذلك النهار دنت بوارجنا بعضها من بعض ووقف نصف القباط الى جانب المدافع خوفاً من قوارب الطربيد لانا كنّا نخشى ان تبيّتنا . وكان الليل حالك الظلام

اجتمعت ظلمته وظلمة الضباب واستولى السكون على البوارج والذين فيها فجعلوا يمشون على ظهورها ذهاباً وإياباً كأنهم اشباح بلا ارواح ولكنهم كانوا كلهم على حذر خوفاً من العدو المفاجئ

رأينا شبحاً عن بعد فقال بعضنا انهُ من قوارب الطربيد وخيّل للبعض انهم سمعوا صوت آلة البخارية تحقق ولا خفقان قلب الجبان فصعدت الى المرقب حيث كان الاميرال جالساً بين النوم واليقظة وكان القومندان يمشي هناك مسرعاً ذهاباً واياباً وفي رجليهِ خفٌّ لين لا يسمع لهُ صوت فقال لي انهم لم يرونا حتى الآن و بعد ساعتين يشرق الفجر فاذا كانت قوارهم على مقربة منا لا تستطيع ان تجتمع وترشقنا بطرابيدها بل كيف يتيسّر لها ذلك والبحر على ما ترى من الهياج ونحن انفسنا لا نرى ساقة اسطولنا. وعثورهم بنا اتفاقاً امر بعيد الوقوع جداً لا يحدث مرةً في مئتي الف مرة

ولكنهُ حدث حينئذٍ فانهم عثروا بنا الساعة الخامسة من صباح السابع والعشرين من شهر مايو فان طراداً من طرّاداتهم كاد يدخل بين سفن المستشفى والحال خاطب بقية البوارج اليابانية بالتلغراف اللاسلكي فتصدت الينا مسرعةً فرأينا واحدةً منها الساعة السادسة والدقيقة السادسة والاربعين وارتعّ الساعة الثامنة وكانت تسير على موازاتنا. ثم رأينا اربعة طرادات الساعة العاشرة فثبت لنا حينئذٍ ان المعركة الفاصلة صارت على الابواب فاشارت بارجة الاميرال الى بقية بوارجنا وطراداتنا لتعطف للعرب. وعند انتصاف النهار اسرع الضباط الى طعامهم فاكلوا لقمةً وشربوا نخب القيصر والقيصرة وروسيا وطلبوا من الله ان يقدرهم على خدمة بلادهم بالامانة والشرف. وقبل ان ينقطع صدى الهتاف نادى البوق على ظهر البارجة منذراً بابتداء القتال فان سفن العدو وعدتها اثنتا عشرة بين بارجة وطراد صارت امامنا في ظهر البحر فوقف الضباط في اماكنهم المعينة لهم ووقفتُ انا على المرقب الخلفي لعلي ارى منهُ تفصيل المعركة

والحال اخذت البوارج اليابانية تعكس سيرها ولا تستطيع ان تتم ذلك في اقل من ربع ساعة وهي في اثناء اتمامهِ لا تستطيع ان تطلق مدافعها لئلا يصيب المتأخرُ منها المتقدم فرجونا ان نضرّ بها جهدنا في تلك الدقائق. وفي الساعة الواحدة والدقيقة ٤٩ اتمت الميكادو بارجة الاميرال طوغو دورتها هي والبارجة التي وراءها فاطلقت عليها السوفروف القنبلة الاولى وتبعتها سائر بوارجنا الاّ ان قنابلنا تخطّت البوارج اليابانية وارتمت وراءها ثم قصّرنا المرمى فصارت قنابلنا تقع امامها. وكانت اذا انفجرت لا يخرج منها الاّ قليل من الدخان وهي لا تنفجر الاّ اذا اصابت غرضاً والظاهر انها لم تصب شيئاً. وبعد دقيقتين دارت بارجتان اخريان من بوارج العدو وجعلت كلها تطلق مدافعها علينا فتخطتنا القنابل الاولى ووقعت بعيداً

عنا ثم جعل المدفعية يقصرون رماها الى ان وصلت الينا . وهي كبيرة جدًّا طول القنبلة منها اربع اقدام وقطرها قدم وملؤها مادة متفرقعة لا يعلم تركيبها الاَّ اليابانيون وهي تنفجر مهما اصابت ولو وقعت في الماء . ولم يكن الاَّ قليل حتى صعد عمود من الماء والنار والدخان من جانب المدخنة الامامية من بارجتنا فانتزع القنابل واطارها في الجو وتبعتهُ السنة من النار خرجت من مخادع الضباط فان قنبلة وقعت في غرفة القبطان وخرقت ارضها ونزلت الى مخادع الضباط وانفجرت فيها واشعلها وحينئذٍ بدت الدهشة على كل وجه فالتجت الذعر الشديد او التفاني والاستسلام حسب اختلاف الرجال في اخلاقهم . ووقف رجال المطافئ مذهولين كأنهم فقدوا رشدهم فنزلتُ عن المرقب وجعلت اصيح هذا وانهض همة ذاك لعلي ابث في قلوبهم الحماس . ثم التفتُّ الى حيث يقف الضباط المنوط بهم رفع العلم والاشارات فوجدت ان قنبلة انفجرت على مقربة منهم فمزَّقت شملهم وتركت بعضهم خمَّا على وضم

وكنت عازمًا ان اكتب في مفكرتي وصف القنابل وافعالها والاماكن التي تصيبها لكنني وجدت اني عاجز عن ذلك لان تلك القنابل كانت تنهال علينا كالمطر — امر لم اشاهدهُ من قبل ولا خطر على بالي . وكانت القنابل تنفجر حالما تقع ومهما اصابت واذا انفجرت اتلفت كل شيء ومزَّقت كل شيء فكانت تمزق صفائح الصلب كأنها ورق وتبعثر شقفها فتقتل كل من تصيبهُ وتثلم سلالم الحديد فتلفها حلقًا وتصيب المدافع الكبيرة فتطرحها من اماكنها . واشتدت الحرارة وانتشر اللهب على ظهر البارجة فغاصت في بحر من النار . وصعدت الى مرقب الاميرال وهو برج من الصلب الثخين فيهِ ثقوب صغيرة يرقب منها فرأيتهُ فيهِ هو والقبطان يرقبان سير القتال ولما دخلت سمعت القبطان يقول للاميرال يجب ان ندنو من العدو والاَّ قتلنا كلنا فقال الاميرال كلنا مقتول لا محالة . وكان الى جانبهما ضابطان مقتولان ولما خرجت من هذا المرقب رأيت العدو قد ادار بوارجهُ كلها فصارت موازية لنا وهي تصب علينا قنابلها المهلكة ولا يظهر انها اصيبت بشيء من الاذى اما نحن فواحر باد بشت متراكمة ومراقب مشتعلة ومسددات مخربة والبارجتان الكبيرتان الاسكندر و بورودينو امامنا وقد شمنهما الدخان

الساعة ٢ الدقيقة ٥ بعد الظهر — حاول العدو ان يتقدم ببوارجهِ و يقف امامنا معترضًا حتى تقع قنابل كل بوارجهِ على البارجة المتقدمة من بوارجنا و يتعذر علي سائر بوارجنا ان تسدد مدافعها اليهِ لئلا يصيب بعضها بعضًا . واتى رجل حينئذٍ ليخبرني بما حل بالبرج المؤخر من بارجتنا وسمك حديدهِ ١٢ بوصة فاسرعت اليهِ واذا الحديد قد نزع من البرج والتوى الى الاعلى واما المدفع الذي فيهِ فكان لا يزال سليمًا يصلي الاعداء نارًا حامية . واصابت قنبلة

رئيس الطغائين فقطعت ساقيه وكثر عدد القتلى والجرحى حتى امتلأت بهم الطرق

الساعة ٢ والدقيقة ٢٠ — صار اطلاق المدافع الخلفية ضرباً من المحال فقد اختنق الناس من الحرارة والدخان وصار القتل في المرقب ستة ولا يزال العدو يحاول الوقوف في طريقنا مستعرضاً وقد تلفت آلات تسديد المدافع التي في بوارجنا فاضطر المدفعية ان يطلقوا مدافعهم من غير تسديد . وبينما انا انظر مدهوشاً جاء مخبر يقول ان البرج المؤخر نسف نسفاً ولم يكد يتم كلامهُ حتى سمعنا صوتاً قاصفاً كالرعد فالتفتنا واذا المدخنة المقدمة قد وقعت وحطمت كل ما اصابتهُ

الساعة ٢ والدقيقة ٣٠ — حاولت الذهاب الى البرج المقدم فوجدت الوصول اليهِ ضرباً من المحال والتقيت بنائب رئيس العلم فاخبرني ان الدفة تعطلت عن العمل فلم تعد بارجتنا تنفع لشيء . اي ان بارجة الاميرال لم تصبر على هذه المعركة الا نصف ساعة واضطرت ان تخرج من حومة الوغى فقلت ان هذا ما كان يتقصنا . وكانت بوارجنا لا تزال ماخرة في طريقها تحاول الخروج من خط النار ولكن بارجة الاميرال دارت في دائرة لتعطل دفتها فالتفتُ لارى زوارق الطريد التي كان يراد ان تأتي وتنقلهُ الى بارجة اخرى اذا تعطلت بارجتهُ فلم ارَ لها اثراً لأن وسائل الاشارات كانت قد تعطلت كلها

وقد قال احد اليابانيين وكان قد رأى بارجتنا مرأى العين انها بقيت سائرة في اثر سائر البوارج مع كل ما اصابها حتى كان يتعذر على الرائي ان يحسبها بارجة

واشتدت آلام الجرحى حينئذٍ فجعلوا يئنون انيناً ينتت الاكباد . هؤلاء هم الذين تمزقت اعضاؤهم وارتموا في اماكنهم اما الذين لم تمنعهم جراحهم من الحركة ومنهم الاميرال وسائر الاحياء فظلوا دائبين على العمل فاصلحوا الدفة بعض الاصلاح حتى صار سير البارجة ممكناً ولو لم يكن منتظماً . وحاول الاميرال ان يقف في مكان يشاهد المعركة منهُ فجرح جرحاً بالغاً وحمل الى برج بقي فيهِ غير قادر على الحركة . ورأت البارجة الاسكندر ان بارجة الاميرال لم تعد قادرة على السير فاخذت القيادة بدلاً منها واسرعت بقية البوارج لكي تمنع العدو من الوقوف في طريقها في خط مستعرض لكنهُ تمكن من ذلك لسرعة بوارجهِ واضطر بوارجنا ان تدور جنوباً

الساعة ٢ والدقيقة ٥٠ — وقفنا كلنا ننظر الى البوارج اليابانية تصبُّ نيرانها على البارجة الاسكندر فظل البحر حولها غلياناً ولما صارت على التي يرد من بوارج العدو وجعلت القنابل تصيبها ادارت دفتها وعكست سيرها وارتكنت الى الفرار وتبعتها البورودينو وسائر البوارج . وثبت لنا حينئذٍ ان الفوز تمَّ لليابانيين علينا

الساعة ٣ والدقيقة ٣٥ — تبعنا العدو وهو يصب علينا ناراً حامية حتى اذا وصل الى بارجة الاميرال وجد احد ابراجها لا يزال سليماً ومدافعهُ تطلق النار فاتتهُ ثم رمادا بقنبلة خرقت درع الفولاذ عند حد الماء فتدفق الماء اليها وكان القومندان لا يزال في قيد الحياة مع انهُ مجروح جراحاً بالغة فجمع بعض الرجال يستعين بهم على اطفاء النار فاتت قنبلة ذهبت بهم كلهم

الساعة ٤ والدقيقة ٢٠ — اتت قوارب الطريد لتهجم على بارجتنا وكان معنا مدفع صغير لا يزال رجالهُ احياء مع ما فيهم من الجراح فطردوا تلك القوارب حالاً بقنابلهم. فارتدت وهي تنتظر فرصةً أخرى

الساعة الخامسة انقسم الاسطول الياباني قسمين قسماً سار جنوباً وهاجم سفن النقل وقسماً بقي يرمي بوارجنا بقنابله وكانت بوارجنا قد دارت في دائرة كبيرة وعادت الى السير شمالاً وبعد قليل جاءنا قارب من قواربنا ليأخذ الاميرال واركان حربه وكان الاميرال مطروحاً في البرج يعي ولا يعي فرفض الخروج من بارجته في اول الامر ثم امر ان يجتمع اركان حربه فلم يوجد منهم الا اثنان وقد دعونا الباقين باسمائهم واحداً واحداً لان النور الكهربائي كان قد تعطل فلم يكن سامع ولا مجيب وكان في السوفروف ثمانمئة بين ضابط وبحار فلم يبقَ منهم الا نفر يعدون على الاصابع . وبعد عناء شديد ادنى القارب عن البارجة فدنوت من الاميرال وطلبت منهُ ان يسمح لنا بانزاله الى القارب فابى فحملناهُ وهو يئن وانتظرنا حتى اتت موجة كبيرة رفعت القارب الى موازاة ظهر السفينة فالقيناهُ فيهِ وهو مغمًى عليهِ ونزلتُ انا معهُ ولا اعلم كيف نزلت مع انني كنت مجروحاً جراحاً بالغة في ساقي ثم اسرع القارب بنا تحت نار العدو

الساعة ٥ والدقيقة ٥٠ — فحص الطبيب جراح الاميرال فقال ان جمجمتهُ مكسورة وحياتهُ في خطر وكان لا بدَّ من بقاء القيادة في يدهِ الى ان يتنازل عنها فسألناهُ هل يستطيع ان يبقي القيادة في يدهِ والى اي بارجة يريد ان ننقلهُ فالتفت اليَّ وقال «كلاَّ اين انا . انت ترى فر» . ثم اجهد نفسهُ وقال الى فلادفستوك شمالاً و٢٣ درجة شرقاً ثم عاودهُ الاغماء

وعلمنا حينئذٍ ان الباخرة الاسكندر غرقت الساعة ٥ والدقيقة ٣٠

الساعة السابعة — جاءت قوارب الطريد الينا وارتدت عنا خوفاً من نار طراداتنا ثم سمعت كل احد يقول البورودينو البورودينو فرفعت رأسي واتكأت على ذراعي لارى اين البورودينو فلم ارَ الا بقعة من الزبد على وجه الماء فان البحر ابتلعها

الساعة ٧ والدقيقة ٤٠ — لا ازال ارى بوارجنا تحمي نفسها من قوارب التربيد وهذه آخر كلمة كتبتها . انتهى والنتيجة مذكورة في صدر المقالة